أسباب النزول وأثرها في ترجيح المعنى الصحيح لآيات الكتاب الكريم

الباحث
حر حامد بندر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية
Hurh.bandar@uokufa.edu.iq

The Revelation Reason with preference the true meaning Of the verses of the holy Quran

Researcher
Hur hamed bandar
University of Kufa - College of Basic Education

الملخص:-

إنّ سبب النزول عبارة عن قصة تستمد من واقع السيرة النبويّة المشرّفة كل عناصرها وأشخاصها وأحداثها، وهي تعطي لنصوص تفسير القرآن الكريم الحيويّة والمثال الحي الذي يدفع عن القارئ والباحث السآمة والملل عن القارئ والسامع معاً، فهي عبارة عن تهيئة حافزة للنص القرآني لهذا نجد اغلب المفسرين يصدرونها ويقدمونها فيجعلونها في أول شيء يذكر في دراسة النص القرآني وذلك بعد ذكرهم لمناسبة النص لما قبله وبعده.

إن لسبب النزول فوائد عديدة لا يستغنى عنها المشتغلون في مجال القرآن الكريم، في حال من الأحوال، فالاستعانة بسبب النزول على فهم المعنى المراد من الآية أمر حتمي، فقد جاء في القرآن الكريم آيات لا نستطيع الوقوف على معناها الصحيح والدقيق إلا إذا علمنا قصتها، وسبب نزولها، ومن المفروض أن ذلك يجب أن يتم أولاً دون الإخلال بالجانب اللغوي والنحوي.

إن أسباب النزول من أهم المواضيع المتعلّقة بعلوم التفسير، وهو علم قائم بذاته، له نظريّاته وتطبيقاته وشروطه الدقيقة المقننة، وهو علم مكمل لعلوم التفسير لا يستقيم تفسير الكتاب من دونه، وهو مع بقيّة علوم التفسير في حالة تكامل في خدمة القرآن الكريم، لذلك يجب علينا تسليط الضوء عليه من جديد، وحوكمة ما أخذ المفسرون الأوائل منه، وما أهملوا من صحيح رواياته.

الكلمات المفتاحية: أسباب النزول، أصول التفسير، حكمة النص، استجلاء الغموض، نفي التعارض، القرائن الدالة.

Abstract:-

The Revelation Reason is a story that derives its components People and events from the Noble Prophetic biography, which gives activity and active sample to the texts of the Noble Quran explanation that reflects boredom to both the reader and listener together. It is just an incentive setting to the Quranic text.

Therefore, we find the interpreters present the Revelation Reason to be mentioned first in the Quranic text study, just after their Mentioning before and after to the occasion of the text.

The Revelation Reason has several benefits that the employed in the field of the holy Quran do not dispense. In any Way, to be helped by Revelation Reason to understand the intended meaning of the verse is inevitable. In the holy Quran, there are several verses that we cannot understand their correct and exact meaning unless we have known their stories and their Revelation Reason. This must have been done without any mistake in linguistic and grammatical aspects.

The Revelation Reason is the most important subject related to the explanation science, and it is self-contained that has its theories, applications and exact, codified conditions. It is also a complementary science to the explanation sciences that the explanation of the book does not straighten up without it. It is with the rest of the sciences of interpretation in the case of integration ،in service of the Holy Quran. Therefore, we must highlight again on it, and justify what the first interpreters took from it, and what they neglected from his true stories. In addition, we must find out am important fact through this research.

Keywords: Reasons for revelation, principles of interpretation, wisdom of the text, clarification of ambiguity, negation of contradiction, indicative evidence.

المقدّمة:ـ

ربّما يظن البعض أنّ القرآن الكريم كتاب عبادات وحسب، وهذا القول في خطأ وصواب في آن معاً، فالقرآن الكريم هو كتاب عبادات بلا شك، وأنّى قرأت من آياته فلك ثواب تلاوتها، وتستطيع أن تتلوها في صلاتك، "فالقرآن عبادة يُتعبد من خلالها ويُتقرب إلى الله عز وجل بها، مما يدفع بالمسلم إليه ويحببه دومًا في التعامل معه كباب للأجر والثواب، وقربة إلى الله، وهذا لا يتوافر في أي كتاب آخر"[١]، ولكنّه بالإضافة إلى ذلك كتاب جامع للحكمة والعلوم والتشريع، يقول الدكتور جمال الحمصي: أن القرآن الكريم هو كتاب هداية أخلاقية وعلوم واقعية في آن واحد. القرآن الكريم -أولاً- هو كتاب هداية في مجال العقائد والعبادات والأخلاق والتهذيب والتشريع، وهو -ثانياً- كتاب علم في استخراج القوانين الوصفية والسنن الكبرى الحاكمة لتطور المجتمعات والأمم والدول والحضارات، وهو ثالثاً - وإن بدرجة أقل قطعية - مصدراً لتلميحات عميقة لقوانين العالم الطبيعي، مع الأخذ بالاعتبار أن تفسير آيات القوانين الكونية (العالم الطبيعي) يخضع لقاعدة عدم العصمة عن الخطأ[٢].

كل هذا يقودنا إلى حقيقة ثابتة لا ينكرها أحد من علماء التفسير المسلمين، أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الآيات القرآنيّة والحوادث التي نزلت بشأنها، مما ساعد على نشوء علم أسباب النزول كأحد علوم التفسير القرآني الأساسيّة. "هناك أهميّة كبرى في معرفة تفسير الآيات التي نزلت على أسباب معينة على وجهها الصحيح، بل إن كثيراً من الآيات النازلة على أسباب يستحيل معرفة المراد منها من غير أن يقف المفسر على أسباب نزولها"[٣].

إنّ سبب النزول عبارة عن قصة تستمد من واقع السيرة النبويّة المشرّفة كل عناصرها وأشخاصها وأحداثها، وهي تعطي لنصوص تفسير القرآن الكريم الحيويّة والمثال الحي الذي يدفع عن القارئ والباحث السآمة والملل عن القارئ والسامع معاً، فهي عبارة عن تهيئة حافزة للنص القرآني لهذا نجد المفسرين يصدرونها ويقدمونها فيجعلونها في أول شيء يذكر في دراسة النص القرآني وذلك بعد ذكرهم لمناسبة النص لما قبله وبعده.

أهميّة الموضوع:

إنَّ أسباب النزول من أهم المواضيع المتعلّقة بعلوم التفسير، وهو علم قائم بذاته، له نظريّاته وتطبيقاته وشروطه الدقيقة المقننة، وهو علم مكمل لعلوم التفسير لا يستقيم تفسير الكتاب من دونه، وهو مع بقيّة علوم التفسير في حالة تكامل في خدمة القرآن الكريم، لذلك يجب علينا تسليط الضوء عليه من جديد، وحوكمة ما أخذ المفسرون الأوائل منه، وما أهملوا من صحيح رواياته. وكذلك يجب علينا تبيان حقيقة هامة من خلال هذا البحث، أن التفاسير التي لم تعتمد على أسباب النزول الصحيحة هي تفاسير تأويليّة لا تحمل كلّ الحقيقة، ويجب علينا مقارنتها من جديد مع أسباب نزول الآيات، والنظر في النتائج التي نخرج بها.

المنهج العلمي المتّبع:

اتبعنا في هذا البحث طريقة العرض والنقد في المنهج العلمي الوصفي والتحليلي المقارن، وذلك بعرض أقوال السادة العلماء، وآراءهم ومن ثمّ وصفها وتحليلها، من ثم قمنا بحوكمتها والترجيح فيما بينها بما بين أيدينا من شرائط علميّة اعتمدها العلماء أنفسهم، للخروج بالنتائج العلميّة المقبولة والمرجوّة.

خطّة البحث:

قسمنا البحث إلى قسمين، عرفنا في الأول منه علم أسباب النزول لغة واصطلاحاً، وبيّنا أهميّته في علوم التفسير، ومركزيّة هذا العلم بالنسبة لأي باحث قرآني. ثم افردنا القسم الثاني للصيغ التي أتى بها سبب النزول في معرض تفسير الآيات، وكيفية ترجيح المعنى الحقيقي المراد من الآية الكريمة، أو الآيات الكريمات بناءً على سبب النزول الحقيقي وأفردنا العديد من الأمثلة التطبيقيّة العملية على ذلك.

المبحث الأول

علم أسباب النزول تعريفه وأهميّته

المطلب الأول: تعريف سبب النزول:

سبب النزول مركّب من مقطعين صوتيين، الأول (سبب) ومعناه في اللغة الحبل وكل

شيء يتوصّل به إلى غيره[٤]. ونزول تعني هبوط الشيء ووقوعه، نزل من علو إلى سفل - انحدر[٥].

وسبب النزول في الاصطلاح: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمه أيّام وقوعه، كحادثة وقعت في زمن النبي ﷺ، أو سؤال وجّه إليه[٦]، على هذا فإنَّ سبب النزول محكوم بشرطين، ويفهم من هذا أن سبب النزول يكون قاصراً على شيئين الأول: أن تقع حادثة في زمن النبي وأن ينزل فيها وحي يخبر ماهيّتها أو يجيب عن تساؤل ما وجّه للنبي في معرض امتحان أو استفسار، فعلى سبيل المثال، نزلت الآيات الأولى من سورة المجادلة في حادثة مشهورة هي مظاهرة أحد الصحابة لزوجته التي جاءت تشتكي حالها لرسول الله ﷺ، ولم يكن عند رسول الله جواب لحالتها سوى التفريق بينهما، فنزل الوحي في تلك الواقعة. (وأخرج ابْن ماجة ابْن أبي حَاتم وَالْحَاكم وَصَححهُ وَابْن مرْدَوَيْه وَالْبَيْهَقِيّ عَن عَائِشَة قَالَت: تبَارك الَّذِي وسع سَمعه كل شَيْء إِنِّي لأسْمع كَلَام خَوْلَة بنت ثَعْلَبَة وَيخْفى عليّ بعضه وَهِي تَشْتَكِي زَوجهَا إِلَى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَهِي تَقول: يَا رَسُول الله أكل شَبَابِي ونَثَرت لَهُ بَطْني حَتَّى إِذا كبر سني وَانْقطع وَلَدي ظَاهر مني اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْك فَمَا برحت حَتَّى نزل جبْرِيل بهؤلاء الْآيَات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وَهُوَ أَوْس بن الصّامت)[٧].وتكثر الحوادث التي أثبتها القرآن الكريم في هذا الصدد كقصّة المحيض، وسورة المسد، ويوم حنين.. الخ.

ويمتاز هذا العلم بالدقّة والملاحظة، فما ورد في قصّة الفيل مثلاً التي وردت في سورة الفيل المباركة، لا يعدّ في رأي العلماء سبباً للنزول وإنّما أوردها المولى عزّ وجلّ كقصّة كقصص الأمم الغابرة، وإن كانت حديثة العهد وأغلب أهل قريش عايشوها ورأوها جهاراً، بدليل عدم تكذيبها من قبلهم أو إنكارها، إلّا أنّها تبقى بعيدة عن سبب النزول لأنها لم تنزل غب وقوع الحدث أو قبله، فعدم المزامنة يُخرج شرط سبب النزول من البحث. على هذا يقول السيوطي مخالفاً الواحدي: "قلت: والذي يتحرر في سبب النزول أنّه: ما نزلت الآية أيّام وقوعه، ليخرُج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل أن سببها قصّة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت"[٨].

المطلب الثاني: أهميّة أسباب النزول في شرح الآيات القرآنيّة.

نستطيع أن نذكر العديد من نقاط الأهميّة لأسباب النزول وارتباطها الوثيق بتفسير القرآن الكريم، وهي:

١- الحكمة من النصّ:

لا يستقيم الفصل بين حكمة النصّ أو سببه وبين تفسيره، فوحدة الموضوع باعث على تلازم اللفظ والمعنى، ونستطيع القول بأن أسباب النزول تطابق إلى حد كبير ما يُسمّى بالأسباب الموجبة التي يُعتمد عليها بالدرجة الأولى في تفسير القواعد القانونيّة عند الضرورة. فالأسباب الموجبة مسألة لها أهمية كبرى في تهيئة الوقائع التي تُظهر المصالح المرغوب بحمايتها أو تنظيمها بموجب تشريع، وعلى أساس هذه الوقائع تقوم مهمة المتخصصين في المراحل اللاحقة في تحويل الأسباب الموجبة إلى قواعد قانونية عامة ومجردة وملزمة. ويتضح ذلك بشكل جلي نيّة المشرع وهدفه من هذا التشريع أو النص، وما هو المقصود السياسي أو الاجتماعي المتعلق بدفع المفاسد وإثبات المصالح، ثمّ يحدد الوسائل الدالة على هذا الهدف في المضامين والألفاظ والأحكام الدالّة عليها ممّا تتكفل به عمليات الصياغة التفسير[٩]. وأسباب النزول علم إسلامي متقدّم وسابق لعلوم التفسير القانونيّة تلك.

فلا نستطيع مثلاً تفسير آيات تحريم الخمر والتسلسل المنطقي لذاك التحريم إلا من خلال معرفة أسباب النزول، وإلا فسوف تكون النتيجة غير منطقيّة ولا تتوافق مع السياق من حيث إن "الأسباب" لا يكون لها تأثير ولا فائدة إلا إذا عزلنا هذه الآية عن سياقها واعتبرناها مستقلة بنفسها. أما إذا اعتبرنا السياق واكتفينا به فإن المعنى سيكون أوضح، وخالياً من أي تشويش[١٠].

٢- انتفاء امكانيّة الإحاطة بموضوع الآية من دون سبب نزولها:

وقد نص كثير من العلماء على هذا سلفا وخلفا، ونحن هنا نذكر بعضا من هذه الأقوال في بيان أهمية هذا العلم لمعرفة تفسير القرآن الكريم منها: ما ذكره الواحدي أن الآية القرآنية التي لها سبب نزول خاص، فإنه لا يعرف معناها: "لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها،

دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[١١]". فبيان سبب النزول سبيل قوي لفهم معاني القرآن وتجلية مقاصد المولى عزّ وجلّ من الآية أو الآيات الكريمات، وحسبنا في ذلك ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام عن علمه بكتاب الله، فقد أشار إلى أنّ من أهمّ أسباب علمه بكتاب الله علمه بأسباب النزول، قال علي عليه السلام: "**والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت، أبليل نزلت أم بنهار نزلت، في سهل أو جبل إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا**"[١٢].

٣- استجلاء الغموض ونفي التعارض:

ربّما تثير بعض النصوص القرآنيّة الشكوك في نفوس مريضي القلوب، فيظنون أنّ هناك تعارضاً أو تبايناً في القرآن الكريم - والعياذ بالله - قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١٣]، وهذا الشيء مؤكّد، فإنّ أدبيات أي حركة ثوريّة حول العالم، وخاصّة في أوّلها نراها متخبّطة متضاربة، بينما القرآن الكريم نراه يعالج المواضيع بحكمة بالغة، وتسلسل منطقي لا نظير له في الفكر الإنساني على الإطلاق، يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: "هذا التغيير يزداد سرعة حين يعيش الإنسان في خضم أحداث كبرى كالتي تصاحب إرساء قواعد ثورة فكريّة واجتماعيّة وعقائديّة شاملة، الشخص الذي يعيش مثل هذه التحولات الاجتماعية الكبرى لا يستطيع أن يسيطر على وحدة كلامه، ولا يمكنه أن يوجد انسجاما كاملا في أقواله، خاصة إذا كان هذا الشخص غير متعلم، وكان ناشئا في بيئة اجتماعية متخلفة"[١٤].

لذلك فإنّ ربط الحوادث بآياتها يزيل شبهة التناقض تلك، فعلى سبيل المثال نجد أنّ الآية الكريمة تقول: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١٥]، فهناك من ظنّ أنّها تعارض قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[١٦]، وهذا استنتاج طبيعي لمن تفوته المعرفة، والاطلاع على أسباب نزول الآية الأولى، لكن مع أخذ أسباب النزول بالحسبان سيتبيّن للباحث فوراً أنّه لا تعارض البتّة بين مضمون الآيتين، وأنّ الآية نزلت في سرية جابر بن عبد الله الأنصاري، فالتبست عليهم جهة القِبلة فصلّوا باجتهادهم، فلمّا طلعت الشمس بان لهم خطؤهم، فأخبروا رسول الله

بذلك عند عودتهم للمدينة فنزلت الآية لتهوّن عليهم الأمر، وأن الله يقبل الصلاة لأي جهة ممن لم يستطع تحديد القبلة بشكل صحيح(١٧).

٤- تخصيص الحكم أو تعميمه:

لا يمكن أن يُستجلى بغير معرفة سبب نزول الآية، إذ أن بعض العلماء تلمّسوا المعنى بالتخصيص أو بالتعميم مع إغفال أسباب النزول فتوصّلوا إلى نتائج خاطئة، ونستطيع أن نأخذ على سبيل المثال الرأي الذي توصّل إليه أبو الفخر الرازي(١٨) من علماء القرن السابع الهجري، إذ قال في معرض تفسيره لآية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١٩)، فقد أسهب في ذكر أسباب نزولها، وأنها نزلت في مولانا أمير المؤمنين علي، لكنّه عمم المعنى أنها تُجوّز مولاة كل من تنطبق عليه هذه الصفات، وذكر مثلاً قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾(٢٠)، مستنتجاً أنّه لو كانت إنّما هنا أداة حصر، لكان ليس في الدنيا سوى اللعب واللهو والتفاخر، ولكن الدنيا فيها هذا وفيها الإيمان والتقوى والسعي إلى مرضاة الله، فإذا سلمنا بأن إنّما حصريّة في الآية الأولى، فمعناها أنّها حصرية في الآية الثانيّة وهذا يقودنا إلى فساد الاستدلال، بالتالي جنح إلى التعميم وترك التخصيص في تفسير الآية الكريمة(٢١).

لا شكّ في أن هذا الاستنتاج بعيد كل البعد عن المنطق العلمي، وبعيد عن كل شرائط التفسير ومن ضمنها الالتزام بأسباب النزول، فإن التعميم هنا كان بلا شك خطأ كبير، فالآية الكريمة نزلت بإجماع أهل الملّة تقريباً في مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وبالتالي فإن تعميمها يضيّع المعنى، ويُذهب فضل صاحبها، وهذا ما دأب عليه جماعة من علماء المسلمين حين فضّلوا التمذهب على العلم، والتحليل على القرينة. لذلك فإنّ العلامة المرجع السيد محمد الخوئي ردّ على استنتاج الرازي بمطالعة قرآنيّة كلاميّة رائعة، خلص فيها أنّ الحياة الدنيا التي قصدها المولى عزّ وجل في الآية التي ذكرها الرازي لا توجد بمقابل الآخرة، وإنّما قصد بها المولى عزّ وجل الحياة الدنيا (الدونية)، "وذلك لأنّ لفظ الدنيا لا يكون في مقابل الآخرة في هذه الآية بل بمعنى الدانية في مقام الحياة الراقية، ولا إشكال في أنّ الحياة الدانية منحصر

في ما ذكر في الآية الشريفة وإلاّ لم تكن دانية مضافاً إلى ورود نفس هذا المضمون بالحصر بـ (إلاّ) في قوله تعالى وصفها أيضاً بالقول ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، فعليه أيضاً أن ينكر دلالة إلا على الحصر أيضاً[٢٢]. طبعاً هذا في حال ألغينا دلالة سبب نزول الآية إلى المعنى الحصري الذي أعطى الولاية إلى سيدنا أمير المؤمنين، وألزم كلّ مؤمن بها.

بالمقابل لم يجوّز أبو الفخر الرازي ذاته تعميم المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٣]، فقد أورد الرازي أنّ هؤلاء الذين رموا أم المؤمنين عائشة بالإفك غير مشمولين بالعفو الوارد في الآية التي سبقتها والتي تتناول ذات الموضوع، أي الذين قذفوا المحصنات زوراً وبهتاناً ثمّ تابوا وأصلحوا، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢٤]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يسأل عن تفسير القرآن، فسئل عن تفسير هذه الآية فقال: من أذنب ذنبا ثم تاب قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة[٢٥]. وهو استند في ذلك على أن سبب نزول هذه الآية إنّما جاء في أمّ المؤمنين عائشة لذلك لا يجوز تعميمها على بقيّة رامي المحصنات، ونلاحظ أنّه خصص المعنى في الحالة الثانية، وعممه في الحالة الأولى دون أي مبرر علمي. وقد أكّد الزرقاني على أهميّة سبب النزول في معرفة التخصيص والتعميم المرتبط بالآية محل التفسير، ومن دونه لا يمكن ضبط المعنى وما أراد الله تعالى منه سواء لجهة التعميم أو التخصيص[٢٦].

المبحث الثاني

صيغ أسباب النزول وأثرها في المعنى

المطلب الأولّ: صيغ أسباب النزول:

يُصاغ سبب النزول عادةً في متن التفسير بطرقيتين اثنتين:

أولاً - التصريح:

كأن يورد المفسر صراحة السبب في متن شرحه، ويتم ذلك أيضاً بأسلوبين اثنين:

أ- تصريح المفسّر بدايةً: كأن يقول سبب نزول الآية كذا وكذا، ويصرّح بلفظ السبب، مثال:

قَوْلُهُ - عَزّ وَجَلّ - ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾، قَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ غَطَفَانَ كان عنده مالك كَثِيرٌ لِابْنِ أَخٍ لَهُ يَتِيمٍ، فَلَمّا بَلَغَ الْيَتِيمُ طَلَبَ الْمَالَ، فَمَنَعَهُ عَمُّهُ، فَتَرَافَعَا إلَى النّبِيّ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَلَمّا سَمِعَهَا الْعَمُّ قَالَ: أَطَعْنَا اللّهَ وَأَطَعْنَا الرّسُولَ، نَعُوذُ بِاَللّهِ مِنَ الْحُوبِ الْكَبِيرِ، فَدَفَعَ إلَيْهِ مَالَهُ[٢٧].

ب- أن يورد المفسر سبب النزول تعقيباً، كأن ينتهي من الشرح ثم يقول: سُئل النبي ﷺ عن كذا فنزلت الآية، مثال: ما أورده القمي في تفسيره لسورة الإسراء: "أن رسول الله ﷺ كان لا يرد أحداً يسأله عنده، فجاءه رجل فسأله فلم يحضره شيء، فقال: يكون إن شاء الله، فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك، وكان ﷺ لا يرد أحداً عما عنده، فأعطاه قميصه، فأنزل الله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية، فنُهي أن يبخل أو يسرف ويقعد محسوراً من الثياب[٢٨].

ثانياً: إيراد سبب النزول احتمالياً، وهي أن يورد المفسر تفسير الآية ويقول إن الصيغة تحتمل سبب النزول وتحتمل معنىً آخر، مثال ذلك ما أوره الرازي في شرح آية الولاية (المائدة ٥٥) والذي أسلفنا فيه سابقاً، بأن سبب النزول هو في أمير المؤمنين لكن المعنى احتمالي عام، ولقد فصلنا فساد استدلاله هذا.

وكذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢٩]، إذ أورد الطبري في تفسيره عدّة تأويلات للآية الكريمة ثم قال: "وأولى هذه التأويلات بالآية تأويلُ ابن عباس الذي ذكره محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير عنه. وإنْ كان لكلٍّ قول مما قاله الذين ذكرنا قولهم في ذلك مذهب. فأما مذهب من تأوَّل في ذلك ما قاله الربيع بن أنس، فهو أنّ الله تعالى ذكره لَمّا أخبرَ عن قوم من أهل الكفر بأنهم لا يؤمنون، وأن الإنذارَ غيرُ نافعهم، ثم كانَ من الكُفّار من قد نَفَعه الله بإنذار النبي صلى الله عليه وسلم إيّاه، لإيمانه بالله وبالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله بعد نزول هذه السورة - لم يَجُز أن تكون الآية نزلت إلا في خاصٍّ من الكفار وإذ كان ذلك كذلك - وكانت قادةُ الأحزاب لا شك أنَّهم ممن لم ينفعه الله عز وجل بإنذار النبي صلى الله عليه وسلم إياه، حتى قتلهم الله تبارك وتعالى بأيدي المؤمنين يوم بدرٍ - عُلم

أنهم ممّن عنَى الله جل ثناؤه بهذه الآية. وأمَّا علَّتُنا في اختيارنا ما اخترنا من التأويل في ذلك، فهي أنّ قول الله جل ثناؤه إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، عَقِيبَ خبر الله جل ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصِفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله. فأوْلى الأمور بحكمة الله، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفّارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم. لأن مؤمنيهم ومشركيهم - وإن اختلفت أحوالهم باختلاف أديانهم- فإنَّ الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل. وإنَّما احتج الله جل ثناؤه بأول هذه السورة لنبيه ﷺ على مشركي اليهود من أحبار بني إسرائيل الذين كانوا مع علمهم بنبوته منكرين نبوته بإظهار نبيه ﷺ على ما كانت تسره الأحبار منهم وتكتمه فيجهله عظم اليهود وتعلمه الأحبار منهم ليعلموا ان الذي أطلعه على علم ذلك هو الذي أنزل الكتاب على موسى إذ كان ذلك من الأمور التي لم يكن محمد ﷺ ولا قومه ولا عشيرته يعلمونه ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد ﷺ فيمكنهم ادعاء البس في أمره عليه السلام أنه نبي وأن ما جاء به من عند الله وأنى يمكنهم ادعاء اللبس في صدق أمي نشأ بين أميين لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فيقال قرأ الكتب فعلم أو حسب فنجم وانبعث على أحبار قراء كتبه قد درسوا الكتب ورأسوا الأمم يخبرهم عن مستور عيوبهم ومصون علومهم ومكتوم أخبارهم وخفيات أمورهم التي جهلها من هو دونهم من أحبارهم ان أم رمن كان كذلك لغير مشكل وأن صدقه والحمد لله لبين[٣٠]".

المطلب الثاني: أثر سبب النزول في المعنى وإشكالياته:

أولاً - تأثير سبب النزول في المعنى:

لا خلاف بين جمهور المفسّرين وغيرهم من العلماء على الأهمِّيّة الكبرى لأسباب النّزول في فهم كلام الله تعالى، وإمكانيّة التوصّل الصحيح إلى حِكَم التّشريع ومقاصده. وقد سلك هؤلاء العلماء الأفاضل طرقاً عدّة في التّعامل مع أسباب النّزول منها:

أ- القول بنزول الآية نفسها لأكثر من سببٍ، في حال جرى السببان أو الأسباب في وقت متقاربٍ يُمكن معه نزول الآية فيهم جميعًا[٣١].

ب- القول بتكرُّر نزول الآية أو الآيات لكلِّ سبب، وغير ذلك، فإن تعذّر الجمع لجأوا إلى التّرجيح، وذلك أيضًا بعدّة طرق، كترجيح الرِّواية الصّحيحة على غيرها، أو

ترجيح ما صرّح الرّاوي بنزول الآيات فيه على الرِّوايات الّتي لا تصريح فيها[٣٢].

وفي الحالتين فإنَّ سبب النزول يجب أن يكون قاطعاً، إذا صح سبب النزول الصريح فإنّه يعتبر دليلاً مرجّحاً لما وافقه من أوجه التفسير، وقد مر من قبل أن الأئمة المفسرين والأصوليين قرروا أن من أهم فوائد معرفة أسباب النزول، أنَّها تعين على فهم الآية على وجه صحيح، والغفلة عنها توصل صاحبها إلى الخروج عن مقصود الآيات[٣٣]. فإذا تنازع المفسرون في تفسيرهم لآية من القرآن فتعددت آراؤهم فيها، فأولى هذه الأقوال في تفسير الآية ما وافق سبب نزولها الصحيح الصريح في السببية، وهذه قاعدة يُعتَمدُ عليها في ترجيح الأقوال بين المفسرين والعلماء[٣٤].

ثانياً - أمثلة عن ترجيح المعنى تبعاً لأسباب النزول:

لقد دأب المفسرون على اعتماد التفاضل بين أسباب النزول المتعددة من أجل الوصول إلى المعنى الأمثل للآية الكريمة، وهذه حالة شائعة جداً، ولقد اجتهد العلماء فيها من أجل ترجيح سبب على آخر اعتماداً على الشرائط والقرائن الأخرى المرافقة للنص، وسنورد عدداً من الأمثلة على ذلك:

أ - أمثلة عن ترجيح المعنى المتوافق مع سبب النزول الأقوى:

- تفسير الآية ٨٢ من سورة الأنعام: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾. اختلف أهل التفسير في المراد بالظلم على قولين: الشرك وعمدتهم حديث ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال صلى الله عليه وسلم: إنه ليس الذي تظنون ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ إنما هو الشرك. بينما تشدد آخرون وذهبوا إلى أنّ المعنى فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله بفعله. فرجّح المفسرون القول الأوّل تبعاً لأسباب النزول لصحة الحديث فيه[٣٥]، قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ :لَمَّا نَزَلَتْ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ قَالَ أَصْحَابُهُ وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَنَزَلَتْ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣٦]، ولفظ

البخاري عند تفسيره هَذه الْآيَة عَنْ عَبْد اللّه بْن مَسْعُود رَضِيَ اللّهُ عنه قال: بينا أنا أَمْشِي مَعَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ فِي حَرْث وَهُوَ مُتوَكّئٌ عَلَى عَسِيب، إِذْ مَرّ الْيَهُود فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرّوح، فَقَالَ :مَا رَابَكُمْ إِلَيْه، وَقَالَ بَعْضُهُمْ :لَا يَسْتَقْبِلَنّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَه. فَقَالُوا سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرّوح، فَأَمْسَكَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ، فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنّهُ يُوحَى إِلَيْه، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَال: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرّوح قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي الْآيَة.

وَهَذَا السّيَاقُ يَقْتَضِي فِيمَا يَظْهَرُ بَادِيَ الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله الْيَهُودُ عَنْ ذَلكَ بِالْمَدِينَة، مَعَ أَنّ السّورَةَ كُلّهَا مَكّيّةٌ. وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنّهُ قد تكون نَزَلَتْ عَلَيْه بِالْمَدِينَة مَرّةً ثَانِيَةً، كَمَا نَزَلَتْ عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بِالْآيَة الْمُتَقَدّم إِنْزَالُهَا عَلَيْه، وَهِيَ هَذِه الْآيَةُ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرّوح.

وَمِمّا يَدُلّ عَلَى نُزُول هَذِه الْآيَة بِمَكّةَ مَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : "حَدّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيّا عَنْ دَاوُدَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُود: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرّجُلَ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرّوح، فَسَأَلُوهُ، فَنَزَلَتْ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرّوح قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَلِيلًا قَالُوا: أُوتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا، أُوتِينَا التّوْرَاةَ، وَمَنْ أُوتِيَ التّوْرَاةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللّهُ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمات رَبّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ"(٣٧).

ويتبيّن من ذلك أنّ سبب النزول كان سبباً في ترجيح تفسير الآية، رغم معارضة ذلك لكون السورة كلّها مكيّة، فأخذ المفسرون بغالبيّتهم بسبب النزول، وجعلوا الآية مدنيّة لعدم معارضة سبب نزولها.

- قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١)، وفي نزولها قولان: ألأوّل أنّها نزلت في رجلٍ من اليهود، ورجّح البعض أنّه مالك بن الصّيف(٣٨). والثاني أنّها نزلت في قريش، والعرب المنكرين للنُبوّة.

وفي هذا المثال تتجلى القرائن المتباينة، الأمر الذي أدّى إلى تنازع المفسّرين في ترجيح أحد السّببين على الآخر بناء على اختلاف وجهة نظرهم بخصوص أسباب النزول، وأيّهما أصحّ، وبالتالي أيّ المعاني هو الأرجح، فقد ذهب الزمخشري في تفسيره إلى ترجيح القول الأوّل معتمداً على قرينتين اثنتين، أنها نزلت في اليهود لأن محاججة الله تعالى لهم بالكتاب الّذي أُنزل على موسى عليه السلام، ولو كانت في العرب لما استقامت هذه الحجّة لأنّهم كانوا ينكرون النّبوّة وإنزال الكتب أصلًا. وكذلك قوله تعالى في نفس الآية: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وذلك ممّا وُصف به اليهود في أكثر من موطنٍ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٣٩]. فيما ذهب الحافظ ابن كثير إلى ترجيح سبب النزول الثاني ورجّح الحافظ ابن كثير رحمه الله القول الثّاني، وسبقه إلى هذا الترجيح الطبري، واعتمد ابن كثير في ترجيحه على قرينتين أيضاً، أنّ سورة الأنعام مكيّة، واليهود في المدينة، والثانية أن الآية ذكرت ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، واليهود أصحاب كتاب، ويؤمنون بأن موسى تلقّى الكتاب من ربّه، فلا يصح أن يتكلموا بنحو ذلك[٤٠]. وأيّده الطّبريّ في هذا التّرجيح، مضيفاً قرينة ثالثةً وهي السّياق؛ لكون اليهود لم يجر لهم ذكر في سابق الآية ولا لاحقها[٤١].

والأرجح في هذا الموضوع الرأي الأوّل، وكون سورة الأنعام مكيّة لا يقتضي أن لا يكون فيها ما هو مدنيٌّ، وقد قيل أيضاً: إنّ هذه الآية مدنيّة[٤٢].

- قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٣]، وقد ورد في نزولها قولان: الأوّل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانَت اليَهُودُ تَقُولُ: إذَا أَتَى الرَّجُلُ امرأَتَهُ من دُبُرِهَا في قُبُلِهَا، كانَ الوَلَدُ أحولَ، فَنَزَلَت الآية[٤٤]، ومعنى الآية بناءً عليه: أُبيح لكم إتيان نسائكم بالوضعيّة التي تريدون، مقبلةً أم مدبرةً إذا كان ذلك في موضع الحرث.

والثاني عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ عُمر رضي الله عنهما قال: أنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ في إتيان النساء في أدبارهن[٤٥].

وقد رجّح المفسرون المعنى الأوّل لعدّة قرائن، أنّ (الحرث) هو مزدرع الذُّرِّيّة، والمعلوم أنّ زرع الولد لا يكون إلّا في القُبُل(٤٦). وكذلك فإن الآية التي سبقت جاء فيها ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقد فسّر التّطهّر هنا بعدم الإتيان في الأدبار، وقد ذكر في المحرّر الوجيز هذا الرأي ثمّ قال: "كأنّه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف:٨٢)(٤٧)، وأخيراً الأحاديث النبويّة التي قطعت بتحريم نكاح المرأة من دبرها كحديث رسول الله ﷺ: "**مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا**"(٤٨)، وكذلك حديث رسول الله ﷺ: "**لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا**"(٤٩)،

والخلاصة أنّه تمّ استبعاد القول الثاني بإجماع أغلب العلماء بسبب القرائن الثلاث، وتم تغليب المعنى الأول استناداً إلى سبب النزول الأوّل.

ب - أمثلة عن استبعاد المعنى المتوافق مع سبب النزول الأقوى:

رغم ما ذكرناه سابقاً عن أهميّة في تحديد المعنى، وفي ترجيح المعاني المتباينة في حال تعدد أسباب النزول، إلا أنّ للعلماء الأفاضل شطحات لم يراعوا فيها هذا المبدأ سواء لجهل أو لغاية، فتغاضوا عن سبب النزول الأقوى، ورجّحوا المعاني الأخرى، سنذكر بعضاً منها: قال تعالى في سورة النساء الآية ٦٥: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فهناك شبه إجماع أنّ الآية الكريمة نزلت في رجلٍ من الأنصار خاصم الزّبير بن العوّام t في شراج الحرّة، فقضى رسول الله ﷺ للزّبير، فقال الأنصاريُّ: (أن كان ابن عمّتك؟)، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ، قال الزّبير: (والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلّا في ذلك)(٥٠).

والحقيقة أنّ العلماء تغاضوا عن هذه الرواية رغم تواترها والتوافق عليها، لأجل رواية ضعيفة غير منطقيّة تزعم أنّ: "قال القاضي أبو محمد رحمه الله :والصحيح الذي وقع في البخاري أنه رجل من الأنصار، وأن الزبير قال :فما أحسب أن هذه الآية نزلت إلا في ذلك، وقالت طائفة :لما قتل عمر الرجل المنافق الذي لم يرض بحكم النبي ﷺ، بلغ ذلك النبي وعظم عليه، وقال :ما كنت أظن أن عمر يجترئ على قتل رجل مؤمن، فنزلت الآية

نافية لإيمان ذلك الرجل الراد لحكم النبي، مقيمة عذر عمر بن الخطاب في قتله[٥١]. "ذكْرُ سَبَبٍ آخَرَ غَرِيبٍ جِدًّا: قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قِرَاءَةً، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، وأخبرني عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيعَةَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ :اخْتَصَمَ رَجُلَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم فقضى بينهما، فقال المقضي عَلَيْهِ :رُدَّنَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »نَعَمْ «، انطلقا إليه، فلما أتيا إليه، فقال الرَّجُلُ :يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قَضَى لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا. فقال :ردنا إلى عمر بن الخطاب، فردنا إليك :فقال: أكذاك؟ قال :نَعَمْ .فَقَالَ عُمَرُ: مَكَانَكُمَا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمَا فأقضي بينكما .فخرج إليها مُشْتَمِلًا عَلَى سَيْفِهِ فَضَرَبَ الَّذِي قَالَ: رُدَّنَا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَتَلَ عُمَرُ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَلَوْلَا أَنِّي أَعْجَزْتُهُ لَقَتَلَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَجْتَرِئَ عُمَرُ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ الآية، فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عُمَرُ مِنْ قَتْلِهِ، فَكَرِهَ اللَّهُ أَنْ يُسَنَّ ذلك بعد، فأنزل وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (النِّسَاء: ٦٦)، وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهِيعَةَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ بِهِ، وَهُوَ أثر غريب مُرْسَلٌ، وَابْنُ لَهِيعَةَ ضَعِيفٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[٥٢].

وفي حال تجاوزنا عدم منطقيّة الرواية، وأنّ عمر (رض) يتصرّف من نفسه دون الرجوع إلى رسول الله، ويعتبر لنفسه حاكميّة مع وجود الرسول بين ظهراني المسلمين، ولم يكن آنذاك خليفة ولم يكن له من الأمر شيء بعد، فتراه يُفتي في الأمر -مع وجود الرسول على بعد أمتار منه- ويخالف سنّة الله في القتل (النفس بالنفس)، ويقتل الرجل! لا نقول ضربه، بل قتله وهمّ بالآخر أيضاً ليقتله، فإنّ مخرج الرواية يسلّم بغرابتها وضعف سندها وضعف مصداقيّة راويها، ولكن بالرّغم من كل ذلك نرى أنّ هذا التفسير يتصدّر التفاسير، ويُعتدّ به كفضيلة من فضائل سيدنا عمر (رض)، ويؤخّر التفسير الأوكد الذي نزلت به الآية، ألا وهو الزبير وجاره الأنصاري الذي أزعج رسول الله ﷺ ورماه بتهمة المحاباة، ومع ذلك لم يقضي رسول الله بقتله!

- نعود لقضيّة سبق أن ذكرناها في البحث، ونعيد ذكرها هنا، ألا وهي آية الولاية، : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٥٣]، فقد

اتفق العلماء على أنّها نزلت في مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، لكنّهم مع ذلك أخرّوا المعنى الملازم لسبب النزول، من أنّه دعوة ربانيّة واضحة لتولي أمير المؤمنين عليّ الذي تصدّق بالخاتم وهو راكع، وقاموا بعميم المعنى ليصبح جواز مولاة كل من تنطبق عليه هذه الصفات، وقد فندنا ذلك في بند التخصيص والتعميم من هذا البحث، ولا حاجة للإعادة.

أيضاً نعطي مثالاً أخيراً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[٥٤]، وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: **الأوّل**: أنّها نزلت في جماعة من المؤمنين، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: (أَنّ عَبْدَ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوَا النّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم بِمَكّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إنّا فِي عِزّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمّا آمَنّا صِرْنَا أَذِلّةً، فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا**"، فَلَمّا حَوّلَهُ اللهُ إلَى الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِالْقِتَالِ فَكَفّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى الآية[٥٥]. غير أنّ جمهور المفسرين وعلى رأسهم ابن عطيّة وآخرون أغفلوا هذه الرواية لما فيها من طعن في الصحابة، ورجّحوا رواية أخرى ضعيفة تقول أن الآية نزلت في اليهود، مخالفين بذلك سبب النزول والسياق في آن معاً[٥٦].

أخيراً الخلاصة والنتائج:

١- إن القرآن الكريم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسنّة النبويّة المطهّرة، وما أثر عن رسول الله من أقوال وأفعال وتقرير، لذلك فلا مناص من الاعتماد على الروايات الصحيحة في استجلاء غموض بعض الآيات وتفسيرها، ويأتي سبب النزول في مقدّمة هذه الروايات، لأنّ مضمون الآية إنّما جاء لأجل الحادثة، ففهم الآية لا بد أن يرتبط باستيضاح الحادثة وإلا فإننا نكون في بعد عن الأمانة العلميّة والمنطق في آن معاً.

٢- إنّ علم أسباب النزول علم سابق ومستقل، له نظريّاته وتطبيقاته وشروطه الدقيقة المقننة، وهو علم مكمل لعلوم التفسير لا يستقيم تفسير الكتاب من دونه، وهو مع بقيّة علوم التفسير في حالة تكامل في خدمة القرآن الكريم.

٣- أنّ أهل التّفسير أظهروا عناية بالغة بأسباب النّزول عناية بالغةً، ولم يقتصروا على

ذكر الأسباب، بل تعدَوا ذلك إلى التدبُّر والتّرجيح فيما بينها، فأصابوا حيناً وأخطأوا حيناً.

٤- أنّ التّرجيح بين أسباب النُزول من الوجوه العظيمة في التّوصّل إلى المعنى الصّحيح للآية، وهو سلاح ذو وجهين، وعلينا إعادة النظر في النتائج التي توصّل لها العلماء الأقدمون لهذه الناحية، واستجلاء الحقيقة، ومعرفة أسباب الترجيح بعناية وحوكمتها طبقاً للعلم وللشروط التي اعتمدها أهل الروايات.

٥- يجب إيلاء موضوع أسباب النزول عناية أكبر، والتركيز عليه، فهذا الموضوع يحتاج إلى ملاحظة أكبر قدرٍ ممكنٍ من الشّواهد والتّطبيقات، بهدف التّوصّل إلى الفهم الصّحيح لكلام الله سبحانه وتعالى.

هوامش البحث

(١) - مجدي الهلالي، إنه القرآن سر نهضتنا، كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة، اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٦، ط١، ص ٣٦.

(٢) - جمال الحمصي، القرآن الكريم كتاب هداية للبشرية أم كتاب علوم تجريبية؟ مقال منشور في موقع أكاديميا العلمي، https://www.academia.edu/40645082/ تاريخ الزيارة ٢٠٢٣/٣/٩.

(٣) - الحسن بن خلوي الموكلي، أسباب النزول وأثرها في تفسير القرآن، دراسة تطبيقية على سورة البقرة، بحث منشور في حولية كليّة المعلمين في أبها، العدد ٨، عام ١٤٢٨ هـ، ص ١٣.

(٤) - ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٤٥٨.

(٥) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص ٤١٧.

(٦) - محمد عبد العظيم زرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٤٣، ج١، ص ١٠٦.

(٧) - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر بيروت، ج٨، ص ٧٠.

(٨) - جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص٤.

(٩) - أحمد حسين عثمان، قراءة في كتاب تفسير القوانين، النص والسياق والتفسير المقاصدي، ص ١٤.

(١٠) - https://www.alittihad. مراجعة نقدية لأسباب نزول تحريم الخمر، صحيفة الاتحاد. وأسباب النزول للواحدي، ج١، ص٣٧.

(١١) - أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، أسباب النزول، تحقيق د. مصطفى البغا، ص٧.

(١٢) - العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ١٥٩.

(١٣) - سورة النساء: الآية ٨٢.

(١٤) - التفسير الأمثل، مرجع سابق، ج٣، ص ٣٤٦.

(١٥) - سورة البقرة: الآية ١١٥.

(١٦) - سورة البقرة: الآية ١٥٠.

(١٧) - راجع الواحدي، أسباب النزول، ج١، ص ص٢٢.

(١٨) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي، الطبرستاني المولد، القرشي، التيمي البكري النسب، الشافعي الأشعري الملقب بفخر الدين الرازي وابن خطيب الري وسلطان المتكلمين وشيخ المعقول والمنقول، (١١٥٠-١٢١٠). من كتبه تفسير الرازي الكبير.

(١٩) - سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٢٠) - سورة الحديد: الآية٢٠.

(٢١) - أبو الفخر الرازي، تفسير الرازي، ط٣، ج١٢، ص ٢٦-٣٠.

(٢٢) - السيد محمد مهدي الموسوي الخلخالي، أصول فقه الشيعة، دروس ألقاها آية الله العظمى المرجع الأعلى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ﷺ، ج٤، ص ٦٨-٦٩.

(٢٣) - سورة النور: الآية ٢٣.

(٢٤) - سورة النور: الآية ١٥.

(٢٥) - تفسير الرازي، ج٢٣، ص ١٩٢.

(٢٦) - مناهل العرفان، مرجع سابق، ج١، ص ١٠٦.

(٢٧) - الواحدي، أسباب النزول، ج١، ص ٧٥.

(٢٨) - علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب، إيران ١٤٠٤، ج٢، ص ١٨.

(٢٩) - سورة البقرة: الآية ٦.

(٣٠) - ابن جرير الطبري، تفسير البيان، ج١، ص ١٦٠-١٦١.

(٣١) - مناع خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ص ٨٣.

(٣٢) - المرجع السابق نفسه.

(٣٣) - مجلة الإحياء، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٣٤) - فهد بن عبد الله الحزمي، القول المبين في قواعد الترجيح بين المفسرين، ص١٧.

(٣٥) - محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي، ج٦، ص ٢٣٨٨.

(٣٦) - سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٣٧) - تفسير ابن كثير، ج٥، ص ١٠٤-١٠٥.

(٣٨) - ابن كثير، تفسير ابن كثير، طبعة العلميّة، ج٣، ص ٢٦٩.

(٣٩) - الزمخشري، تفسير الكشاف، ج٢، ص ٤٤.

(٤٠) - ابن كثير، تفسير ابن كثير، طبعة العلميّة، ج٣، ص ٢٦٩.

(٤١) - أبو جعفر بن جرير الطبري، تفسير الطبري، طبعة دار التربية والتراث، ج١١، ص ٥٢٤-٥٢٦.

(٤٢) - ابن عطيّة، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٢، ص ٢٦٤، وج٢، ص ٣٢٠.

(٤٣) - سورة البقرة: الآية: ٢٢٣.

(٤٤) - صحيح البخاري، في التفسير، باب نساؤكم حرث لكم، برقم ٤٥٢٨. وفي صحيح مسلم، في النكاح، باب جواز جماعه امرأته من قدّامها ومن ورائها من غير تعرُّض للدُّبر، برقم ١٤٣٥.

(٤٥) - تفسير ابن كثير، ج١، ص ٤٤٤. وابن عطيّة، ج١، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٤٦) - المرجع السابق، ص ٤٤٥ وما بعدها.

(٤٧) - ابن عطية، ج١، ص ٢٩٩.

(٤٨) - الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ١٤٥/٢٠.

(٤٩) -الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٠٠/٢.

(٥٠) - تفسير الطبري، ج٨، ص ٥١٩. صحيح البخاري (تفسير سورة النساء باب ١١). مسند أحمد، ج١، ١٦٥- ١٦٦.

(٥١) - تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٧٥. والطبري، ج٨، ص ٥٢٣-٥٢٥.

(٥٢) - تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٥٣) - سورة المائدة: الآية: ٥٥.

(٥٤) - سورة النساء: الآية ٧٧.

(٥٥) - ابن كثير، ج٢، ص ٣١٥. الدر المنثور، ج٢، ص ٥٩٤. الزمخشري، ج١، ص ٥٣٥.

(٥٦) - الطبري ج٨، ص ٥٤٧ وما بعدها. ابن كثير، ج٢، ص ٣١٧ وما بعدها، الدر المنثور، ج٢، ص ٥٩٤. ابن عطيّة، ج٢، ص ٨٠ وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

الكتب:

١- ابن منظور، لسان العرب، دار التعارف، ج١.

٢- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ابو أيمن للطباعة، اليمن، ج.٤

٣- ابن جرير الطبري، تفسير البيان، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، ج١، ٣١٠هـ.

٤- ابن كثير، تفسير ابن كثير، طبعة العلميّة، ج.٣

٥- أبو جعفر بن جرير الطبري، تفسير الطبري، طبعة دار التربية والتراث، ج١١، ص ٥٢٤-٥٢٦.

٦- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ١٤٥/٢٠

٧- أحمد حسين عثمان، قراءة في كتاب تفسير القوانين، النص والسياق والتفسير المقاصدي.

٨- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، أسباب النزول، تحقيق د. مصطفى البغا، ص.٧

٩- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ١٤٥/٢٠

١٠- جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، دار الكتب العلميّة، بيروت.

١١- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج.٢

١٢- أبو الفخر الرازي، تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط٣، ج١٢.

١٣- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر بيروت.

١٤- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب، إيران ١٤٠٤، ج٢، ص ١٨٠

١٥- فهد بن عبد الله الحزمي، القول المبين في قواعد الترجيح بين المفسرين، ج١.

١٦- محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي، دار الكتب العلمية - بيروت ج٦.

١٧- مناع خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشروالتوزيع، ط٣، ٢٠٠٠م

١٨- المجلسي، بحار الأنوار، دار التراث العربي، بيروت –لبنان، ج٩.

١٩- مجدي الهلالي، إنه القرآن سر نهضتنا، كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٦، ط١، ص ٣٦.

٢٠- محمد عبد العظيم زرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٤٣، ج١.

٢١- الواحدي، أسباب النزول، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام – السعودية،ط١، ٢٠٠٥م.

مقالات:

- جمال الحمصي، القرآن الكريم كتاب هداية للبشرية أم كتاب علوم تجريبية؟ مقال منشور في موقع أكاديميا العلمي.

رسائل وأطريح:

- الحسن بن خلوي الموكلي، أسباب النزول وأثرها في تفسير القرآن، دراسة تطبيقية على سورة البقرة، بحث منشور في حولية كليّة المعلمين في أبها، العدد ٨، عام ١٤٢٨ هـ.

المصادر الإلكترونية:

- https://www.alittihad. تاريخ الزيارة ٢٠٢٣/٣/٨.

- https://www.academia.edu تاريخ الزيارة ٢٠٢٣/٣/٩.